

كان يتكلم في تليفون الدكان بصوت مُرتفع، يُسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظرنني سأحضر فوراً". طويل القامة نحيلها ورؤي الجبهة والعينين. مُكَّور الذقن وأما صلعته فلم يبق فوق مراتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان للذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمنة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتي وجد منفذا إلي الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلي ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتي شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعلهُ المفاجئة أو سوء التقدير وثب إلي الأمام وهو يهتف "ياساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين علي التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف علي الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتي تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفأ علي وجهه ولا يجرؤ أحد علي لمسه وإحدي رجله ممدودة إلي آخرها والأخري منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائها، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجهها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". "لكنه طار في الهواء والعياذ بالله" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصيح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق اليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطرت السيارات إلي الالتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاة. فضاقت بها حتي تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقى وكان الضابط حاسما وحازما، فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، وتساءل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائدا بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجها إلي الضابط فبادره هذا قائلا: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك علي حين استطرد رجل الإسعاف قائلا: "أعتقد أن الحالة خطيرة جدا". وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، ثم التفت إلي مساعده قائلا: "إصابة خطيرة في الرئة اليسري، عملية!" فhez رأسه قائلا: "إنه يحتضر!" وصدقت فراسة الطبيب فلقد تحرك الرجل حركة شاملة كالعرشة واضطرب صدره اضطرابا متلاحقا متحشرجا، ثم شهب شهب خفيفة واستكن، وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقدًا بكامل ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، فقال الضابط وهو يوميء إلي الفقيد: "وشهادة الشهود ليست في صالحه"، وشرع في عمله علي حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكطة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضي يفتشها جيبا جيبا، ويملي علي الشاويش: "خمسة وأربعون قرشا من العملة الورقية، رويشة للدكتور فوزي سليمان"، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، ثم واصل إملاؤه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها. ولما لم يجد شيئا اخر في الحافظة قال بضيق: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، وانتقل إلي الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، فأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدل به علي شخصية الرجل. نظر أول ما نظر علي الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلي رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلي أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بُدا من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلي الوجه الباهت المشثوب بزرقه مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتساءل الطبيب عثرت علي شيء؟ فانتبه إلي نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل علي اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلي القراءة متجنبًا النظر إلي عيني الطبيب، "فقد انزاحت عن صدري الأعباء المريرة، أمينة وبهية

وزينب في بيوتهن، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين"، واسترق النظر مرة أخرى إلى الإنسان الراحل الذي لا يدري أحد مقره، الذي يثير الدهشة بصمته و انعزاله وارتداده العميق إلى المجهول، وبعد تفكير طويل، قرّ رأيي علي ترك الخدمة فعلا، قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلم في تليفون الدُكان بصوت مُرتفع، يُسمَع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنّظرنني سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها وروّي الجبهة والعينين. مُكُور الذقن وأما صلعته فلم يبق فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان اللذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمنة بمحاذاة صف من اللوريّات الواقفة نسق التوار حتي وجد منفذا إلي الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلي ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتي شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعلّ المفاجئة أو سوء التقدير وثب إلي الأمام وهو يهتف "ياساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين علي التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشر متشنج ممزق وهي تزحف علي الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتي تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفئا علي وجهه ولا يجرؤ أحد علي لمسه وإحدي رجليه ممدودة إلي آخرها والأخري منتثية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائها، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، أندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجهها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لعلها إصابة بسيطة" عند فمه انظر. "كل ساعة حادثة من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصيح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقى هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق اليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطرت السيارات إلي الالتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في مشاة. فضاق بها حتي تحركت في ببطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقى وكان الضابط حاسما وحازما، فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، وتساءل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كباجي كان عائدا بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجها إلي الضابط فبادره هذا قائلا: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلي مستشفى الدمرداش" وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك علي حين استطرد رجل الإسعاف قائلا: "أعتقد أن الحالة خطيرة جدا". وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، كانت طلائع الليل تزحف كالجبال، ثم التفت إلي مساعده قائلا: "إصابة خطيرة في الرئة اليسري، تهدد القلب مباشرة" ثم شفق شهقة خفيفة واستكن، وكان الطبيب يراقبانه، فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول انتهى. وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقدًا بكامل ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلي الفقيء: "شهادة الشهود ليست في صالحه"، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن نستدل علي شخصيته" وشرع في عمله علي حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، وتأهب بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضي يفتشها جيبا جيبا، روشة للدكتور فوزي سليمان"، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة علي ظهرها وجرّه بصره عليها بلا إرادة فإذا بها "الببيض والدهنيات ممنوع، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاي والقهوة والشيكولاته" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، وانتقل إلي الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، منديل، سلسلة مفاتيح، ساعة يد، وكان آخر ما عثر عليه

صفحة مطوية من كراسه وبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد، نظر أول ما نظر علي الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلي رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلي أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدا من قرائتها. اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة"، أضطر إلي التوقف رافعا عينيه إلي تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلي الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتساءل الطبيب عثرت علي شيء؟ "فقد انزاحت عن صدري الأعباء المريعة، انزاحت جميعا والحمد لله، أمينة وبهية وزينب في بيوتهن، وها هو علي يتوظف، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين"، واسترق النظر مرة أخرى إلي الإنسان الراحل الذي لا يدري أحد مقره، الذي يثير الدهشة بصمته و انعزاله وارتداده العميق إلي المجهول، "المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين، وبعد تفكير طويل، قرّ رأيي علي ترك الخدمة فعلا، فتهيأت أن تتحسن صحتي طالما بقيت في المدينة، هي الفرق بين المرتب والمعاش، ولذلك قررت أن أطلب إحالتي إلي المعاش وقريبا أعود إلي البلد إن شاء الله،